رسالة إلى حاج (2)

الثلاثاء 23 أكتوبر 2012 12:10 م

د/ حمدي شعيب (*)

أخي الحبيب الحاج ...
نسأل الله سبحانه أن يتم عليكم نعمته وأن تعودوا إلى أهليكم وذويكم سالمين غانمين
كنا قد حدثناكم حول ثلاث رسائل تربوية لرحلة الحج المباركة وهي (دعوة للإيجابية وكن سبَّاقاً للمعالي واقرأ تاريخك وافتخر).
واليوم نستمتع معكم بمعايشة أجواء رحلتكم الطيبة فنستكمل رسائل ثلاث أخرى إليكم:
الرسالة الرابعة: رتب أولوياتك:
وعندما نستمر في قراءة تاريخ هذا الركن العظيم، من خلال سيرة تلك العائلة المباركة، ونتذكر كيف أن إبراهيم عليه السلام امتثل لأمر الله عز وجل ووحيه، وأخذ وحيده إسماعيل عليه السلام وزوجته هاجر وذهب بهما إلى مكة، **(وكانت مكة يومئذ لا نبت فيها ولا ماء، وأنزلهما بمكة في موضع زمزم، ومضي لا يلوي على شيء ودعا دعائه الخاشع الراضي، وانصرف إلى أهله بالشام، وترك هاجر وولدها الذي طالما دعا الله سبحانه أن يرزقه به**
كم كانت تضحية كبيرة!؟. أبَعْد أن يُرزق الولد، ويراه بين يديه، وتقر عينه برؤيته، يحرم منه وهو حي يرزق؟!.
والأعجب من هذا يحرم منه طائعاً مختاراً نزولاً على أمر الله عز وجل). [نظرات في أحسن القصص: د محمد السيد الوكيل]
من خلال هذه اللمحة التاريخية، ندرك أن تلك العقبة أوالخطوة الإبتلائية، في حياة أبي الأنبياء عليه السلام تمثل معلماً في طريق الخير، ولنا أن نسميه ما شئنا، نسمه إبتلاء، نسمه تضحية، ولكن الأهم من ذلك أنه يمثل قمة النضج في حياة الإنسان عندما يصل إلى مرحلة الترتيب الصحيح لأولوياته، فتصبح الفكرة مقدمة على أي أمور أو مصالح أو ارتباطات أخرى في حياته
فإذا كان الطفل يمر بمراحل اجتماعية نفسية ثلاثة هي: مرحلة التمحور حول الأشياء، ثم مرحلة التمحور حول الأشخاص، ثم مرحلة التمحور حول الأفكار وكذلك المجتمعات، تمر بنفس المراحل في تطورها الحضاري **[مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: مالك بن نبي]**
فنحن نؤكد أن ذلك واقع أيضاً في حياة المسلم، وإن تطوره التربوي والدعوي، يمر بنفس المراحل، حيث يبلغ قمة النضج، عندما يصبح تمحوره حول الفكرة التي يؤمن بها، والمبدأ الذي يحمله، ويتعدى مرحلة التأثر والتمحور حول الوسائل والأشياء والماديات، ومرحلة التمحور حول الأشخاص
وتأمل تلك التضحية في سبيل الفكرة، والتي لا تمثل قمة النضج فقط، بل إن الموت في سبيلها كان من أعظم صور النصر، وذلك بانتصار الفكرة، حين مات الغلام على يد الساحر، كما جاء في قصة **(الغلام والراهب). [رواه مسلم والترمذي]**
وتدبر مغزى هذا التوجيه الرباني، لخير الأجيال، حينما أصابهم الخور عندما سرت أشاعة مقتله صلى الله عليه وسلم أثناء محنة أحد، وذلك حتى يرتبطوا بالفكرة لا الشخص ولو كان خير من وطئ الحصى صلى الله عليه وسلم: **"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ". [آل عمران144]**
وتدبر أيضاً سنة الله عز وجل في هذا القانون الشاق، **(قانون الخروج)**، أو المرحلة التي لابد منها، في طريق أصحاب الدعوات، والذي لفت إليه نظر الحبيب صلى الله عليه وسلم عن طريق ورقة بن نوفل، في أول خطواته الدعوية، عندما **(قال: يا ليتني فيها جذعاً - أي شاباً جلداً - إذا يُخرجك قومك من بلادك، قال: أو مخرجي هم؟!. قال: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي). [نور اليقين: الخضري]**
وتدبر كذلك قصة يوسف عليه السلام وما تمثله من نموذج للخروج والإبتلاء قبل التمكين، ومغزى نزولها في الفترة الحرجة من عمر الدعوة بين عام الحزن، وبين بيعة العقبة الأولى، ثم الثانية، التي جُعِل فيهما الفرج والمخرج لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللعصبة المؤمنة معه وللدعوة الإسلامية، بالخروج والهجرة إلى المدينة
وهي الرسالة التربوية الرابعة؛ التي توضح أن المسلم لابد وأن يعيد ترتيب أولوياته، ويدرك أن قمة النضج الدعوي، في حياته وحياة أصحاب المبادئ، لا تكون إلا بالتطور والخروج؛ بمعناه الراحب اللاحب، الخروج من أسر الوسائل والأشياء والماديات، ومن التأثر بالشخصيات، إلى التمحور حول الفكرة التي يؤمن بها، والمبدأ الذي يحمله
الرسالة الخامسة: تمسك بشعار أعقلها وتوكل:
عندما صدع إبراهيم عليه السلام بأمر ربه، وترك هاجر ووحيدها، ومضى، بعد أن وضع عندهما جراباً - وهو الوعاء الذي يُحفظ فيه الزاد ونحوه، - فيه تمر، وسِقَاءً - وهو القربة الصغيرة- فيها ماء، فكانت هاجر تأكل التمر، وتشرب الماء، وترضع وليدها وهذا السلوك العظيم في حياة الأنبياء والدعاة على مر التاريخ، يوضح أن خلق التوكل على الله عز وجل لا ينفي مبدأ الأخذ بالأسباب
وتدبر خطة الحبيب صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم، حينما هاجر من المدينة، وكيف أخذ كل الأسباب، وكذلك كان ديدنه صلى الله عليه وسلم في كل غزواته، بل وفي كل أموره
وضوابط التوكل عليه سبحانه، وأهمها الأخذ بالأسباب، وردت في أكثر من وصية عنه صلى الله عليه وسلم: **"جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟.**
قال: أعقلها وتوكل". [رواه الترمذي]
وهذه الرسالة التربوية، توضح أهمية وجود التوازن في حركة الأفراد، بين جناحي الحركة الإيجابية، وهما الأخذ بالأسباب الشرعية، ثم

التوكل عليه سبحانه
الرسالة السادسة: رسخ قناعاتك:
عندما مضى الخليل عليه السلام قافلاً إلى الشام بعد أن ترك هاجر ووليدها، (فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟.
فقالت ذلك مراراً، وهو لا يلتفت إليها!!، فقالت: آلله الذي أمرك بهذا؟.
قال: نعم
قالت: إذاً لا يُضيعنا، ثم رجعت). [رواه البخاري]
تدبر هذا الموقف العصيب، وتلك التجربة المريرة، في حياة تلك الأسرة المؤمنة المباركة، وتدبر هذه الزوجة البارة الصالحة الممتحنة، وهي تتعقب زوجها، وتصف له الوادي وتدبر مغزى هذا الوصف لحالها (فقالت ذلك مراراً، وهو لا يلتفت إليها!!).
ولعل وصف الحديث لعظمة هذا الموقف، ليس فقط في استجابة وامتثال الخليل عليه السلام لوحيه سبحانه، بل في بلوغه هذه القمة الشامخة في الثبات على الحق، رغم رجاء زوجته، مراراً حقاً "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً". [النحل120]
وهذه القناعة بالمبدأ والفكرة، وترسيخها بالثبات عليها، هو المعلم الدعوي البارز، والمنارة التي لا تنطفئ؛ تلك المنارة التي يشعلها السابقون للاحقين، على طريق الدعوة
وهو الأرث العظيم الذي يفخر به الأبناء السائرون على طريق الآباء والأجداد الهادين المهتدين، أولئك الرجال الصادقين الثابتين، الذين لم يبدلوا: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً". [الأحزاب23]

_____
(*) خبير تربوي وعلاقات أسرية
hamdy_shoaib@hotmail.com

طالع أيضا:

رسالة إلى حاج (1)